هجرة الأطباء العرب واليهود إلي تلمسان

قراءة في الخصوصية التاريخية والاجتماعية للممارسة الطبية في المجتمع التلمساني

أ.العرباوي عمر

يرتبط الطب والتكوين الطبي بمدينة تلمسان بمجموعة من الخصوصيات التاريخية والاجتماعية والثقافية جعلت ممارسة الطب داخل المجتمع التلمساني إحدى خصوصياته والمعبر عن هوية المجتمع التلمساني، تحرص العديد من العائلات على دفع أبنائها إختيار الطب والنجاح فيه ،انطلاقا من الإدراك المتزايد بأهمية الممارسة الطبية ورمزيتها داخل المجتمع الجزائري عموما والمجتمع التلمساني خصوصا باعتبارها آلية من آليات المجتمع للحفاظ على المكانة الاجتماعية والثقافية داخل النسيج الاجتماعي من جهة، كما يعتبر وسيلة لتحقيق الارتقاء الاجتماعي بفعل الوعي المتزايد بأهمية رأس المال المادي والرمزي الذي تحققه الممارسة الطبية.

إن ارتباط الطب والممارسة الطبية بالهوية الثقافية والعلمية لمدينة تلمسان ليس وليد حاضر المدينة، لكنه اكتسب شرعية تاريخية انطلاقا من الخصوصية التاريخية لمدينة تلمسان قديما وحديثا، باعتبارها إحدى الحواضر المهمة في الجزائر وبلاد المغرب والحوض الجنوبي للبحر المتوسط وقد عرف الطب ازدهارا كبيرا في التاريخ الإسلامي للمدينة، انطلاقا من كونها عاصمة العلم والفكر والثقافة الإسلامية على عهد الدول المماليك التي تعاقبت على المدينة واهتمام ملوكها وسلاطينها بالطب والأطباء من خلال مختلف المدارس الكبرى التي عرفتها المدينة كمستشفى المنصورة، مدرسة أولاد الإمام، المدرسة اليعقوبية، المدرسة التاشفينية، المدرسة المرينية (العباد) ومدرسة أبي عنان إضافة إلي حضور العديد من الأطباء العرب واليهود الدين استقروا بتلمسان ومارسوا الطب بين عامة الناس وخاصتهم بعد سقوط الأندلس عام 1492 م ولجوء العديد من الأطباء والعلماء العرب واليهود إلى الهجرة إلي بلاد المغرب وتلمسان.

لقد توافد العديد من الأطباء العرب واليهود على تلمسان إما بدعوة من ملوكها وسلاطينها أو تحت تأثير الرغبة في العمل ولكن سقوط الأندلس شجع الكثير منهم على الإستقراربها

مما جعل المدينة عبر تاريخها الإسلامي تعرف العديد من أسماء في عالم الطب والتطبيب فقد عرفت المدينة مجموعة من أشهر الأطباء العرب واليهود منهم :أبو جعفر الذهبي، أبو عبد الله الندرومي، الطبيب التفاشي، الطبيب ابن خميس، الطبيب ابن أبي حجلة،الطبيب ابن القشوش، الطبيب أبي عبد الله الشريف ،سعيد العقباني، ابن مرزوق الحفيد ،الإمام السنوسي، الآبيلي، ابن الفحام، ابن مريم..وغيرهم، ومن الأطباء اليهود نجد إسحاق ابن سليمان، الطبيب يعقوب جابسون، الطبيب أستروك كوهان والطبيب موشي ابن سموال.

في هده الورقة نحاول تقديم مدى مساهمة هجرة الأطباء العرب واليهود إلي تلمسان بعد سقوط الأندلس في تكريس ثقافة الممارسة الطبية ضمن الهوية الثقافية والمعرفية لمدينة تلمسان؟. كيف استطاعت هده الممارسة أن تستمد شرعيتها التاريخية والاجتماعية لتصبح إحدى خصوصيات الطب داخل المجتمع التلمساني ؟ أكثر من دلك تعبير عن هوية المدينة وسكانها ؟

إن التأكيد على حضور الخصوصية التاريخية في الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني كانت محل دراسة ميدانية أجريت سنة 2005/2004 تحت عنوان ،" حب التميز عند طلبة الطب بتلمسان." منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.2004 وقد ركزت فيها على محاولة فهم تأثير وحضور البعد التاريخي في ممارسة الطب في المجتمع التلمساني ضمن مشروع بحث عنوانه:" médecines,maladies et société".

تحت إشراف المركز الوطني لتطوير البحث في الصحة.

"Agence nationale pour le développement de la recherche en santé

1- تاريخ مدينة تلمسان الحضور الثقافي والحضاري:

تشكل مدينة تلمسان حلقة مهمة في تاريخ الجزائر القديم والحديث، باعتبارها من أهم مدن الجزائر التي شكلت بحضورها القوي في التاريخ الإسلامي والعربي الهوية والشخصية العربية والإسلامية للمجتمع الجزائري بفضل الدور السياسي والاجتماعي والثقافي الذي لعبتاها المدينة باعتبارها إحدى أهم الحواضر العربية والإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي وجنوب حوض البحر المتوسط.

لقد برز الدور الريادي السياسي والاقتصادي والتجاري والثقافي والفكري لمدينة تلمسان خلال الحقبة الإسلامية وخاصة في فترة حكم الدولة الإدريسية(776م-909م)وحكم الدولة المرابطية (1079م-1145م) وقد شهدت قفزة نوعية في المجال الثقافي والفكري والعمراني على عهد حكم سلاطين وملوك الدولة الموحدية (1121م-1269م) في عهد

السلطان عبد المؤمن بن علي مؤسس الدول(ص. فركوس:2002.25.34)، لكن المدينة ستعرف ازهي وأعظم فترات الرقي الاجتماعي والفكري والثقافي خلال حكم الدولة الزيانية(1235م-1554م) حيث عرفت المدينة أهم الإنجازات العمرانية من قصور ومستشفيات ومدارس ومساجد على عهد السلطان يغمراسن بن زياد والسلطان أبوحمو موسى الثاني ،حيث غدت تلمسان حاضرة من أعظم حواضر العالم الإسلامي يؤمها العلماء والأدباء والشعراء والطلاب من المغرب والمشرق وأوروبا. وقد استمرت في أداء دورها السياسي والثقافي والفكري إلى فترة التواجد التركي العثماني على الرغم من فترات الانحطاط التي لازمت العالم العربي والإسلامي وارتبطت بمراحل اللاإستقرار السياسي والصراع بين الدويلات الإسلامية التي نشأت في بلاد المغرب والأندلس وتأثرت بها مدينة تلمسان، حيث كانت هده الأخيرة في كثير من الأحيان مسرحا لأحداث الصراع السياسي والثقافي الذي نشأ بين العديد من المدن في بلاد المغرب والأندلس.

على الرغم من تأكيد الباحثين والمؤرخين على الدور السياسي والاجتماعي والثقافي والفكري الذي لعبته مدينة تلمسان في العهد الإسلامي مما أهلها لتكون من ابرز مدن المغرب الإسلامي إلا أن المدينة شكلت حضورا بارزا في مراحل سابقة وقد أثبتت الحفريات التاريخية ارتباط المدينة بمختلف الحضارات التي تعاقبت على شمال إفريقيا كالفينيقيين والرومان واليونان والوندال والبيزنطيون، مما يشكل أبعادا رمزية للخصوصية التاريخية للمدينة شكلت إلى حد بعيد الهوية التاريخية للمدينة وجعلتها إحدى مميزاتها في التعريف بنفسها وفي محاولة مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل وفق رؤية جديدة تزاوج بين الحداثة والأصالة، مع التركيز على الفترة الإسلامية والتي شهدت خلالها المدينة حضورا قويا على المستوى السياسي والثقافي والعلمي أهلها لتكون عاصمة الفكر والمعرفة والثقافة والفن توازي في كثير من الأحيان الإشعاع الثقافي والحضاري لمدن بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والقاهرة والقيروان وفاس وغرناطة، فقد كانت على مر السنوات والقرون محج ومزار للعديد من العلماء والأدباء والشعراء وطلاب العلم والمعرفة من المشرق والمغرب خاصة بعد سقوط الأندلس عام 1492م وما ترتب عليها من هجرة العديد من العلماء والأطباء والشعراء ورجال الدين والعلم والفن والكثير من التجار والحرفيين العرب والمسلمين واليهود الذين استقروا بمدن المغرب الإسلامي وخاصة بمدينة تلمسان.

انطلاق من ازدهار الحياة الثقافية والفكرية والفنية والعمرانية في مدينة تلمسان مما جعلها عاصمة للفكر والمعرفة والفن لقرون عديدة أهلها لتكون مركزا للإشعاع الثقافي والعلمي، فإلى جانب إزدهار العمران والتجارة والحرف والفنون ارتبطت المدينة بالتكوين العلمي في مختلف العلوم الدينية والدنيوية فإلى جانب علوم القران والسنة والفقه والشريعة والقانون والتصوف واللغة والنحو والشعر والخطابة والرحلات وعلم التاريخ برزت المدينة ومدارسها في تعليم علوم الرياضيات والحساب والجبر والهندسة والفلك وعلم التنجيم إضافة إلى العلوم الطبية من طب وجراحة وصيدلة وصناعة للأدوية. نظرا لحضور الطب والصيدلة وصناعة الأدوية عند العديد من العلماء والأطباء في تاريخ تلمسان ساهم على حد بعيد في جعل الممارسة الطبية داخل المدينة مزدهرة بشكل كبير بين عامة الناس وخاصتهم وشكلت حضورا قويا داخل الصيرورة التاريخية للمدينة أصبحت منذ تلك السنوات جزءا من الخصوصية الثقافية والفكرية لمدينة تلمسان وجزء من المخيال الجماعي للمجتمع التلمساني ،هده الممارسة الطبية قد تواصلت عبر تاريخ المدينة إلى اليوم لتشكل جزءا من الهوية الثقافية والعلمية والفكرية لتلمسان في الماضي والحاضر والمستقبل رغم فترات الضعف والاندثار خلال فترة الحماية العثمانية وفترة الاحتلال الفرنسي، حيث يحرص سكان المدينة اليوم على جعل الممارسة الطبية ضمن منظومة التكوين الجامعي حاضرة بقوة ويسعى المجتمع التلمساني إلى جعلها أكثر تميزا وحضورا داخل المجتمع أكثر من ذلك الحرص على تكريس الأبعاد الرمزية والاجتماعية للممارسة الطبية داخل الفعل المعرفي والفكري لأفراد المجتمع التلمساني.

2- الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني :

إنه على الرغم من صعوبة الربط التاريخي بين الممارسة الطبية في العصور التاريخية القديمة والعصور الحديثة إما بسبب فترات الانقطاع والانحطاط التي لازمت الممارسة الطبية من جهة وتطور النماذج والأشكال والوسائل من جهة أخرى خاصة في العصور الحديثة، هذه الصعوبة قد نجدها عندما نحاول إيجاد قواسم مشتركة بين الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني على عهد رقيه الفكري والثقافي في فترة إزدهار الحضارة العربية الإسلامية وحضور الممارسة الطبية الحديثة في المجتمع التلمساني اليوم وفق مرجعية غربية حداثية في البرامج والمناهج والوسائل واللغة، إلى أنه يمكن إيجاد مجموعة من القواسم المشتركة التي تكرس تأثير البعدالتاريخي والرمزي للطب على تشجيع ودفع أبنائه والأطباء في تاريخ المدينة في المساهمة في استمرارية الممارسة الطبية داخل المجتمع التلمساني وحرص العائلات على تشجيع ودفع أبنائها لولوج التكوين الطبي.

يرتبط الطب والتكوين الطبي بمدينة تلمسان بمجموعة من الخصوصيات التاريخية والاجتماعية والثقافية جعلت ممارسة الطب داخل المجتمع التلمساني إحدى خصوصياته والمعبر عن هوية المجتمع التلمساني، تحرص العديد من العائلات على دفع أبنائها إختيار الطب والنجاح فيه ،انطلاقا من الإدراك المتزايد بأهمية الممارسة الطبية ورمزيتها داخل المجتمع الجزائري عموما والمجتمع التلمساني خصوصا باعتبارها آلية من آليات المجتمع للحفاظ على المكانة الاجتماعية والثقافية داخل النسيج الاجتماعي من جهة، كما يعتبر وسيلة لتحقيق الارتقاء الاجتماعي بفعل الوعي المتزايد بأهمية رأس المال المادي والرمزي الذي تحققه الممارسة الطبية.

إن ارتباط الطب والممارسة الطبية بالهوية الثقافية والعلمية لمدينة تلمسان ليس وليد حاضر المدينة، لكنه إكتسب شرعية تاريخية انطلاقا من الخصوصية التاريخية لمدينة تلمسان قديما وحديثا، باعتبارها إحدى الحواضر المهمة في الجزائر وبلاد المغرب والحوض الجنوبي للبحر المتوسط وقد عرف الطب ازدهارا كبيرا في التاريخ الإسلامي للمدينة، انطلاقا من كونها عاصمة العلم والفكر والثقافة الإسلامية على عهد الدول والمماليك التي تعاقبت على المدينة واهتمام ملوكها وسلاطينها بالطب والأطباء من خلال مختلف المدارس الكبرى التي عرفتها المدينة كمستشفى المنصورة، مدرسة أولاد الإمام، المدرسة اليعقوبية، المدرسة التاشفينية، المدرسة المرينية (العباد) ومدرسة أبي عنان إضافة إلي حضور العديد من الأطباء العرب واليهود الذين استقروا بتلمسان ومارسوا الطب بين عامة الناس وخاصتهم بعد سقوط الأندلس عام 1492 م ولجوء العديد من الأطباء والعلماء العرب واليهود إلى الهجرة إلي بلاد المغرب وتلمسان.

لقد توافد العديد من الأطباء العرب واليهود على تلمسان إما بدعوة من ملوكها وسلاطينها أو تحت تأثير الرغبة في العمل ولكن سقوط الأندلس شجع الكثير منهم على الإستقراربها مما جعل المدينة عبر تاريخها الإسلامي تعرف العديد من أسماء في عالم الطب والتطبيب فقد عرفت المدينة مجموعة من أشهر الأطباء العرب واليهود منهم :أبو جعفر الذهبي، أبو عبد الله الندرومي، الطبيب التقشي، الطبيب ابن خميس، الطبيب ابن أبي حجلة، الطبيب ابن الفشوش، الطبيب أبي عبد الله الشريف ،سعيد العقباني، ابن مرزوق الحفيد ،الإمام السنوسي، الأبيلي، ابن الفحام، ابن مريم..وغيرهم، ومن الأطباء اليهود نجد إسحاق ابن سليمان، الطبيب يعقوب جابسون، الطبيب أستروك كوهان والطبيب موشي ابن سموال.

في هذه الورقة نحاول تقديم مدى مساهمة هجرة الأطباء العرب واليهود إلي تلمسان بعد سقوط الأندلس في تكريس ثقافة الممارسة الطبية ضمن الهوية الثقافية والمعرفية لمدينة تلمسان؟. كيف استطاعت هذه الممارسة أن تستمد شرعيتها التاريخية والاجتماعية لتصبح إحدى خصوصيات الطب داخل المجتمع التلمساني ؟ أكثر من ذلك تعبير عن هوية المدينة وسكانها ؟

إن التأكيد على حضور الخصوصية التاريخية في الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني كانت محل دراسة ميدانية أجريت سنة 2005/2004 تحت عنوان ،" حب التميز عند طلبة الطب بتلمسان." منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.2004 وقد ركزت فيها على محاولة فهم تأثير وحضور البعد التاريخي في ممارسة الطب في المجتمع التلمساني ضمن مشروع بحث عنوانه:" Médecines,maladies et société".

تحت إشراف المركز الوطني لتطوير البحث في الصحة.

"Agence nationale pour le développement de la recherche en santé

3- ثقافة الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني:

قبل الحديث عن مجموعة الأطباء العرب واليهود الذين هاجروا من الأندلس واستقروا بتلمسان بعد سقوط الأندلس عام 1492م ومارسوا الطب والجراحة والصيدلة وصناعة الأدوية في تلمسان (A.filali:1975)إما في القصور أو المستشفيات أو بين عامة الناس وقد تركوا الكثير من المصنفات في التأليف وصناعة الأدوية ووصف الأمراض وعلاجها خاصة مع التشجيع الذي لقيه الأطباء من طرف خاصة المجتمع التلمساني وعامتهم حيث اهتم ملوك وسلاطين وأمراء تلمسان ببناء المستشفيات وتشجيع الأطباء والعلماء على التأليف ومعالجة الأمراض وهو ما سنورد عنه حيزا مهما في هذه الورقة لكن قبل ذلك يجب الإشارة على نقطتين أساسيتين في مقاربتنا لظاهرة الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني اليوم وتأثير البعد التاريخي والرمزي للطب والأطباء في تاريخ المدينة وحاضرها، هاتين النقطتين تكمنان فيما يلي :

- النقطة الأولى : إن مختلف مؤسسات التكوين الطبي الحديث بتلمسان " كلية العلوم الطبية، المؤسسة الإستشفائية الجامعية،معهد التكوين الشبه الطبي"، على رغم من حداثة إنشائها فهي وليدة جزائر ما بعد الاستقلال إلى أنها حافظت على خصوصية مكانية تاريخية فهي ترتبط دائما في تصور الأفراد في المجتمع التلمساني بالمكانة الرمزية والتاريخية لمدينة المنصورة والتي شكلت أول مستشفى في المدينة على عهد السلطان حمو الثاني.

- النقطة الثانية : إدراك العائلة التلمسانية لأهمية الممارسة الطبية في تحقيق الارتقاء الاجتماعي والمكانة الاجتماعية والحفاظ عليها لذلك تحرص العديد من العائلات على خلق آلية اقرب إلي التوريث "Les héritier" حسب" بيار بورديو" "P.Bourdieu" لتمكين أفرادها من الاستمرار في ممارسة الطب بشكل يجعل هذا الأخير لا يخرج عن نطاق العائلة الكبيرة، على الرغم من التحول الذي طرأ على طبيعة وشكل العائلة الجزائرية عموما والعائلة التلمسانية خصوصا وذلك ضمن محاولات الحفاظ على مهنة الطب كجزء من الثقافة والهوية التلمسانية وذلك من خلال إستحضار المخيال الجماعي لمنطقة تلمسان والذي يحتفظ بمجموعة كبيرة من الأطباء والمعاصرين الذين أسسوا لهوية الطب والممارسة الطبية داخل المجتمع التلمساني.

بالنسبة للنقطة الأولى نجد أن المؤسسات الطبية في مدينة تلمسان إما المرتبطة بالتكوين أو الاستشفاء حافظت على خصوصية مكانية تستحضر التاريخ القديم لمدينة تلمسان عموما ومدينة المنصورة على وجه الخصوص، فعلى الرغم من تمركز مؤسسات التكوين الطبي" كلية العلوم الطبية، المؤسسة الإستشفائية الجامعية،معهد التكوين الشبه الطبي" في حي الأفق الجميل وهو حي حضري إلا أن هذه المؤسسات تقع غير بعيد عن محيط المدينة القديمة المنصورة وغير بعيد عن آثاره

الشهيرة "الصومعة ،باب الخميس، أسوار المدينة القديمة" هذا الحديث ينطبق على القطب الجديد كلية العلوم الطبية المنشأة حديثا حيث تتوسط هذه الأخيرة الكثير من المواقع الأثرية الهامة في تاريخ تلمسان حيث تقع في محيط الحوض الكبير لتلمسان غير بعيدة عن أحد أشهر الأبواب التاريخية لتلمسان القديمة باب الحديد غير بعيدة عن قصر المشور السعيد الذي يتوسط مدينة تلمسان لذلك يحرص الأطباء وطلبة الطب على تسجيل حضور المدينة بكل ماتحمله من زخم التاريخ والحضارة والثقافة وخصوصية المكان والزمان ذلك أنهم يدركون بنوع من الاعتزاز والفخر أهمية الطب في مدينتهم على اعتبار ماتملكه هده الأخيرة من شرعية قوية ومتميزة تأسست على ميراث تاريخي وحضاري جعل المدينة تملك الشرعية التاريخية لكي تكون مجالا رحبا للثقافة والفن والفكر والعلوم من هنا الطب في تلمسان ليس وليد التخطيط السياسي والطلب الاجتماعي فقط بل هو نتاج حتمي للصيرورة التاريخية الطويلة وامتداد طبيعي لكل المسارات الثقافية الحضارية للمدينة وجاءت استجابة إلى محاولة السير على خطى المدارس الكبرى التي عرفتها المدينة واشتهرت بها لعدة قرون وجعلتها تعج بالعلماء والطلبة في مختلف علوم الدين والآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الطبية ولعل من أشهرها مدرسة ابوحمو موسى الأول 1287م والمدرسة أبوتاشفين والمدرسة المرينية (العباد) لأبو الحسن المريني1327م ومدرسة أبي عنان 1333م والمدرسة اليعقوبية لأبوحمو موسى الثاني1344م هذه المدارس عرفت العديد من الشعراء والأطباء والمؤرخين مثل : عبد الرحمان ابن خلدون، يحيى ابن خلدون ،ابن عرفة ،الأبيلي وأصبحت تضاهي مدن القيروان وفاس وقرطبة إشبيليا وغرناطة ببلاد الأندلس. حيث يصف ألفريد بال أهل تلمسان بقوله: " يتميز المسلمون التلمسانيون ويتفوقون بحياتهم الثقافية لا على سكان الأرياف فحسب، بل وعلى مسلمي المدن الأخرى"(.مجلة تلمسان:1975.17)

في مقابل ذلك يحرص الأطباء والطلبة على التأكيد على هذا الإرث الحضاري للمدينة في مختلف تصريحاتهم حيث يؤكدون على الحضور القوي للطب في المدينة بتبني الفكرة القائلة بأن كبار الأطباء في الجزائر ينحدرون من منطقة تلمسان والمرتبطة بعائلات قارة، بن ديمراد،بن منصور،دمرجي، زرهوني، بلقلفاط ،إسطنبولي، صنهاجي، بن ثابت، بن أشنهوا...وغيرهم.

يقول أحد الطلبة:"الطب ليس مهنة فقط ،بل هوثقافة ارتبطت بالمدينة".(طالب.س4.طبيب)

تقول إحدى الطالبات:" كبار الأطباء الجراحون خاصة في التخصصات الدقيقة من تلمسان وأصولهم الاجتماعية من المنطقة...." (طالبة.س4.رئيس قسم الأشعة بالمستشفى)

تقول طالبة أخرى :" عند الحديث عن الأطباء في الجزائريظهر الأطباء من أبناء تلمسان من صفوة الأطباء ولهم مكانتهم واحترام الناس لهم في الداخل والخارج والبروفيسور زرهوني والبروفيسور صنهاجي دليل على مكانة الأطباء التلمسانيين ليس في الجزائر فقط بل في الخارج..."(طالبة.س5.إطاربالبنك)

بالنسبة للنقطة الثانية تملك الممارسة الطبية في المجتمع التلمساني أبعادا مادية ورمزية تحرص الأسرة التلمسانية من خلالها على ضرورة دفع أبناءها إلى اختيار الطب والنجاح فيه انطلاقا من الإدراك المتزايد بأهمية الطب ورمزيته في المجتمع إضافة إلى المعرفة المسبقة بما يشكله الطب من رأس مال مادي ورمزي داخل المجتمع حيث يحقق الارتقاء الاجتماعي ويضمن المكانة الاجتماعية ويحافظ عليها.

نظرا لإعتبارالتكوين الطبي جزء مهم في منظومة التعليم والتكوين العالي في الجامعة فإن هذا الأخير يحاول أن يعيد إنتاج المكانة الاجتماعية والمهنية والثقافية باعتبارها مؤسسة تعليمية لذلك يذهب"بياربورديو""P.Bourdieu " إلى القول :" تساهم المؤسسة التعليمية ،وألح على كلمة تساهم، في إعادة إنتاج وتوزيع رأس المال الثقافي وبالتالي في بنية المجال الاجتماعي"(بيار بورديو.1998:47). لذلك تسعى الممارسة الطبية إلى تحقيق هذا المنحى بإبراز الأهمية التي تعطيها الفئات العليافي المجتمع للثقافة بهدف خلق قيم وممارسات ثقافية واجتماعية وتوريثها لأبنائها أكثر من ذلك تؤشر إلى وجود تراتبية اجتماعية هدفها فرض نظام من البنيات الفكرية والقيمية على مجمل أفراد مجتمع الفعل الطبي من أطباء وطلبة ومرضى وجمهور العامة من أجل خلق مجتمع الأطباء المتميز في قيمه وتصوراته وسلوكاته وممارساته، فالعامل الثقافي مهم في تحديد العادات والتقاليد والممارسات والإستراتيجيات التي تعبر في جوهرها على وجود فكر وفلسفة وثقافة انتماء تعبر عن مجتمع الطب والأطباء وخصوصياتهم الثقافية واللغوية والرمزية يقول :" بيار بورديو" "P.Bourdieu " " إن الطلبة الأكثر رقيا اجتماعيا لايرتبطون بعائلاتهم فقط من حيث العادات والسلوكيات الاجتماعية التي تخدمهم بشكل مباشر في حياتهم الدراسية، بل إنهم يرثون أيضا المعارف وكيفية الحياة وفن التصرف ضمن رصيدهم المدرسي "(P.Bourdieu1968.12).كما يظهر اهتمام العائلات بالطب ضمن الإستراتيجيات المختلفة لضمان وجودها الاجتماعي وإستمراريته إحداث نوع وشكل من السيطرة والهيمنة الثقافية والرمزية في إطار إعادة إنتاج المكانة الاجتماعية نفسها حيث تحيا وتستمر بنوع من إعادة الإنتاج، أي بنزوح إلى استمرارية وجودها الاجتماعي بكل سلطاته وامتيازاته الذي هو " أساس إستراتجيات إعادة الإنتاج وفق إستراتجيات الخصوبة إستراتجيات زواجية، إستراتجيات وراثية، إستراتجيات اقتصادية وأخيرا وبالأخص تعليمية " (بيار بورديو1998.48.47).

انطلاقا من الفكرة الاجتماعية القائلة بأن "الطب ومهنة الطبيب تساهم في الارتقاء الاجتماعي وتضمن الاستقرار الاجتماعي " (P.aiach..94) وانطلاقا أن البنيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية داخل أي مجتمع تحدد وفق الأصول

السوسيوثقافية للفاعلين داخل هذه البنيات كما أنها ترسم وتنتج مجموعة من القيم الاجتماعية والسائدة وتساهم في بناء الوعي الاجتماعي لدى جل الفاعلين وتؤسس لقيم اجتماعية وثقافية تعبر في الأساس عن انتماءات الفاعلين الاجتماعيين للنظام الطبقي الممارس داخل المجتمع من هنا كانت المدرسة والجامعة والتكوين الطبي تعبير مباشر عن اللامساواة في المجتمع يقول كارل ماركس:" إن اللامساواة في التعليم هي الصورة الأكثر تعبير عن اللامساواة الأخرى في المجالين الاقتصادي والاجتماعي وهي الانعكاس المباشر لموقع كل فئةأوطبقة اجتماعية من ملكية وسائل الإنتاج داخل المجتمع"(k.marx.engels.73).

يقدم التكوين الطبي في الجزائر عموما وفي تلمسان على وجه الخصوص صورة حية عن ممارسة الإقصاء الاجتماعي حيث يسعى إلى إعادة إنتاج بنيات اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية تجسد في حقيقة الأمر مبدأ اللامساواة داخل المجتمع التلمساني، فبعيدا عن القراءات السياسية التي يقدمها التكوين الطبي بتلمسان من ديمقراطية التعليم ومجانيته وفتح الفرص أمام الجميع نجد كلية الطب تعمل على إنتاج وإعادة إنتاج نفسها من جهة ومن جهة أخرى محاولة تسويق أنماط من العلاقات الاجتماعية والتراتبيات الطبقية والإديولوجيةالمعبرة عن مجمل العلاقات الإجتماعية والثقافية داخل المجتمع التلمساني المجسدة للتراتبية واللاعدالة واللامساواة الاجتماعية.

هذه الفكرة في تصورات عامة أفراد المجتمع التلمساني وعند الأطباء وطلبة الطب انطلاقا من ارتباط الطب بالخصوصية الثقافية والتاريخية للمدينة إضافة إلى محاولة العديد من العائلات العمل على احتكار الممارسة الطبية وفق آلية التوريث التي تحدث عنها بيار بورديو(P.Bourdieu1968.12 :") حيث نجد في التصور الجماعي والمخيال الجماعي لأهل تلمسان ارتباط ممارسة الطب في كثير من الأحيان بمجموعة من العائلات التي تعمل على تكريس هذه الممارسة عند أبناءها وأحفادها بالاعتماد على استحضار الوعي بأهمية ورمزية المهنة الطبية المادية والإجتماعية والإنسانية من أجل تحقيق الارتقاء الاجتماعي والحفاظ على المكانة الإجتماعيةهذه الفكرة ترسخت وفق علاقة رمزية داخل مجموعة من العائلات التلمسانية فأسماء عائلات ابن زرقة، ابن أشنهوا ،بلقلفاط، خديم، دمرجي، صنهاجي، بابا أحمد ،كازي، بوشناق، الهدام ،بريكسي ،قارة ،بن ثابت، ثابت خليل ،قهواجي ،تشوار،بن منصور بن زرجب، زرهوني ،بن زرقة بن غبريط كلها تحيل في تصور أفراد المجتمع التلمساني إلى ممارسة الطب واحتكاره من طرف هذه العائلات حيث يعد الطبيب بن زرقة محمد (1851م)من أول الأطباء في الجزائر بالإضافة إلى الطبيب نقاش محمد (1856م)الذي يعتبر من أول الجراحين في الجزائر على الرغم من الاتجاه العام الذي يؤكد على أن محمد بن العربي الصغير هو أول طبيب جزائري ولد بشر شال (1850م-1939م).(m.benlarbey.1999.15).

يقول أحد الطلبة " أقيم مع عائلتي في فيلا.نحن ثلاثة إخوة الوالدين يعملان في قطاع الصحة واهتمامهم بي كبير، إن إخوتي يتفهمون خصوصية الطب وصعوبته ويعملون على توفير الجو الملائم والهادئ خاصة في الامتحانات "(طالب.س4.أستاذ جامعي).

تقول طالبة : " الطب ومهنة الطبيب تملك prestige لايمكن أن تتوفر في مهن أخرى أحببت الطب لأنه شيء عظيم ويشعرني بأنني استطيع أن أساعد الناس من حولي ".(طالبة.س5.أعمال حرة).

يقول طالب أخر:" أنامن عائلة متوسطة الحال لم أحب الطب يوما، كنت أحب الرياضيات لكن حديث الناس عن الطب وإغراءاته المالية دفعني إلى اختياره بالرغم من واقع الصحة والأطباء في الجزائر."(طالب.س4.موظف).

إن انتماء الطلبة للوسط العائلي الممارس لمهنة الطب يولد لديهم الشعور وينمي اتجاهاتهم نحو الطب حيث نلمس بوضوح قدرة الأسرة على ترسيخ مجموعة من النوايا والمشاريع وتنمية الطموح والاستعدادات الذهنية عند أفرادها بشكل يجعل المسألة تدخل في إطار الإستراتجيات التي تعتمدها الأسرة في إعادة إنتاج المكانة الإجتماعيةعند البعض وتحقيق الارتقاء الاجتماعي عند البعض الأخر يذهب الدكتور توماس لويس إلى القول:"كان أبي يصطحبني للزيارات الطبية كلما كنت بالبيت وإنني لموقن بأن أبي كان يرجو دائما أن أصبح طبيبا....أما أمي فكانت وهي تتحدث مع الأسرة في رواحها وغدوها في البيت تقول لنا : إن أبانا لم يكن خير طبيب في المدينة فحسب ولا الأفضل الأطباء في مقاطعة كويتز فقط بل الأرجح إنه الأفضل في أي مكان".(لويس توماس1983.38).

في اتجاه أخر تظهر الخصوصية الرمزية لمهنة الطب عن غيرها من المهن الاجتماعية في تصور الأفراد في المجتمع باعتبارها مرتبطة بصحة وحياة الأفراد تفرض الممارسة الطبية مجموعة من القيم والأخلاقيات التي يجب أن تتوفر في الطبيب الممارس وطالب الطب على حد سواء لذلك تحرص الأسرة على تنشئة أفرادها على تحمل مسؤوليات الممارسة الطبية ذلك أنها تفرض مجموعة من التقاليد إما على مستوى كلية الطب أو على مستوى المؤسسة الإستشفائية وعلى مستوى طبيعة العلاقات الاجتماعية والإنسانية التي يفرضها مجتمع الممارسة الطبية حيث يحرص الطبيب وطالب الطب على الالتزام بمجموعة من لشروط المعرفية والعلمية والأخلاقية والإنسانية بفعل الأبعاد الرمزية والاجتماعية والإنسانية لمهنة الطب فإلى جانب ضرورة الإطلاع الكافي والتحكم الجيد في معطيات التكوين بشكل ينمي القدرات والكفاءات المعرفية لطالب الطب عن طريق الإطلاع المستمر على الأبحاث الطبية الجديدة بشكل يلزمه ضرورة التحكم في اللغات الأجنبية والتخصص من أجل التحكم في معطيات الطب

المتجددة حتى يضمن لنفسه تكوينا جيدا وقبولا من المجتمع لكن بالموازاة مع التحكم في متطلبات التكوين الطبي يؤكد الأطباء والطلبة على وجوب توفر مجموعة من الأبعاد الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية والمعرفية خاصة أنه يتعامل مع النفس البشرية أغلى مايملك الإنسان لذلك على الطبيب وطالب الطب أن ينمي شعوره الأخلاقي والإنساني والاجتماعي من خلال حب المهنة والشعور بالمسؤولية والاعتزاز بها والتحلي بالأخلاق والسلوك الحسن وإستحظار الضمير المهني والأخلاقي والشعور بالرحم وحب المساعدة والتضحية إضافة إلى البساطة والصرامة المسؤولية والرغبة والاجتهاد والقدرة على إتخاد القرارات السليمة والفعالة مع وجوب توفر شروط الكفاءة والاجتهاد والمعرفة الواسعة للطب والتخصص فيه أكثر والتحكم في اللغات والإطلاع المستمر والدائم على جديد الطب من أجل الحصول على معلومات ومعطيات دقيقة وتكوين جيد يضمن النجاح الدراسي والمهني لممارس الطب.

يقول أحد الطلبة :" الطب يحتاج إلى التخصص والكفاءة والمعرفة الواسعة لكن الأهم أن يتوفر الطبيب على أخلاقيات المهنة وهي الشعور بالمسؤولية والمحافظة على الأسرار المرضية المريض وكذلك حب المهنة والتضحية والشعور بالرحمة..." (طالب.س4.موظف).

تقول طالبة: " الطب ليس مثل العلوم الأخرى وأنا لا أقلل من أهميتها لكن الطب بفرض الصرامة الدقة والتحدي سرعة إتخاد القرار لأننا نتعامل مع أغلى ما يملك الإنسان وهي الصحة والحياة ".(طالبة.س5.تاجر)

يقول طالب :" كلية الطب لها تقاليد خاصة النظافة الإلتزام الهدوء والاحترام وهي مرتبطة بطبيعة الطب ".(طالب.س5.طبيب عام)

4- تاريخ الممارسة الطبية في الجزائر:

التكوين الطبي في الجزائر قديم قدم الحضارات التي تعاقبت على شمال إفريقيا فقد عرفته مع الوجود الفينيقي والروماني وتطور مع الوجود العربي الإسلامي خاصة في المدن التي سجلت حضورا قويا في هذه الفترة كمدن تيهرت وبجاية وتلمسان هذه المدن تأثرت كثيرا بهجرة الأطباء العرب واليهود والأوربيين من المشرق والمغرب ،خاصة بعد سقوط الأندلس عام 1492م وإهتمام ملوك وسلاطين وأمراء الدول والإمارات الإسلامية التي كانت تيهرت وبجاية وتلمسان عواصم لها بالفكر والعلوم والثقافة والفنون والعمران حيث حضي العلماء والأطباء والصيادلة وصناع الأدوية بإهتمام وتشجيع عامة وخاصة أهل هذه المدن كما عرف الطب حضورا مع التواجد التركي العثماني والذي ساهم في تواجد وهجرة الأطباء الأوربيين ومع الاحتلال الفرنسي تكرس الطب الأوربي ولو بشكل محتشم هذا الأخير هو الذي ساهم في إعطاء اللبنة الأولى للتكوين الطبي الحديث في الجزائر بعد الاستقلال(.2000.: khiati).

يرتبط تاريخ الطب في الجزائر خلال الفترة الإسلامية مع بداية القرن (03هـ/08م) بتأثير من دولة الأغالبة، حيث كانت القيروان عاصمة العلم والثقافة والطب وقد كانت على علاقة جيدة بمدينة تيهرت عاصمة الدولةالرستمية (160هـ/296هـ)، مما ساعد على هجرة العديد من الأطباء والصيادلة العرب واليهود من أهمهم الطبيب إسحاق ابن عمران البغدادي(293هـ/905م) والصيدلي يوحنا الموسوي (155هـ/772م)و الطبيب محمد ابن سعيد طبيب الخليفة الرستمي عبد الرحمن بن رستم والطبيب اليهودي "يهودا" (Yahuda ibn Qaraich)، كل هؤلاء الأطباء العرب واليهود كانوا مقربين من ملوك الدولة الرستمية(2000.49 .: khiati) لكن مع بزوغ الدور الريادي لمدن جديدة على غرار بجاية وتلمسان أصبحت هاتين المدينتين مركزين للعلم والفكر والثقافة والتكوين الطبي، فبجاية عاصمة دولة بني حماد كانت تتوفر على مدرسة ومستشفى يستقطب إلى جانب المرضى العديد من الأطباء والطلبة في مختلف العلوم ومن أهمها العلوم الطبية حتى أن تأثيرها بلغ أوروبا.

عرفت مدينة بجاية العديد من الأطباء العرب واليهود من أشهرهم الطبيب أبو جعفرعمربن علي ابن البحوث والطبيب أحمد بن خالد ولد بملقة بالأندلس وتوفي ببجايةعام(600هـ/1179م) والطبيب أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد السلام اشتغل بالطب إلى جانب الفقه والقضاء في مدينة بجاية كما نجد الطبيب علي بن الطبيب والطبيب ابن أبي المليح الذي عاش على عهد الأميرعبدالله بن العزيز الحمادي في حدود سنة(571هـ/1166م) والطبيب ابن الدراس وهو أبو القاسم محمد بن احمد بن محمد الأموي الذي جاء إلى بجاية سنة610هـ واشتغل بالطب وألف فيه ثم رحل إلى تونس على عهد السلطان الحفصي المستنصر بالله توفي سنة 1271م كما نجد الطبيب محمد بن الحسن ابن ميمون التميمي اشتغل بالطب والفلسفة والتاريخ توفي سنة 1274م والطبيب القاسم ابن زنتون المتوفي سنة1201م والطبيب علي بن عمران بن الأساطير توفي سنة1271م والطبيب عبد الحق ابن إبراهيم ابن سبان جاء إلى بجاية اشتغل

بالطب وتقرب من ملوكها توفي سنة1270م. (khiati :.2000.50.51.52) والطبيب تقي الدين ابن الخطاب والطبيب أبو العباس الجاد الأصفهاني عاش في القرن(08ه/08م)والطبيب أبو إسحاق إبراهيم الداني والطبيب ابن النباش وهو عبد الله محمد ابن عبد الله ابن أحمد البجاوي عاش في القرن 08هـ/13م) والطبيب المشدالي وهو أبو الفضل محمد ابن محمد إبن أبي القاسم عاش في الفترة مابين(822هـ/1471م-864هـ/1460م) والطبيب أبو محمد عبد الحق والطبيب الدلسي والطبيب أبو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن الخزراجي والطبيب علي ابن حمزة الحكيم جاء إلى بجاية وإشتغل بالطب والتأليف وصناعة الأدوية توفي سنة (747هـ/1346م). (khiati :.2000.54.55.56)،كل هؤلاء الأطباء زاروا مدينة بجاية واستقروا بها ومارسوا في كثير من الأحيان التطبيب والجراحة وصناعة الدواء والتأليف إلى جانب اشتغال بعضهم بالفقه والإمامة والتدريس والقضاء نظرا للاهتمام الذي كان يوليه حكام وسلاطين بجاية لأهل العلم والفكر والثقافة إلى درجة أصبحت بجاية مزار للعلماء والطلبة من المشرق والمغرب وجنوب أوروبا.

5- الطب والأطباء في تاريخ تلمسان:

إضافة إلى مدينة بجاية كانت تلمسان بالنظر إلى خصوصياتها كعاصمة للعديد من الدول الإسلامية على عهد الموحدين والمرابطين والزيانيين ملتقى الفكر والثقافة والعلوم والفنون تأثرت بعواصم المغرب وبلاد الأندلس مراكش وفاس وغرناطة واشبيليا وقرطبة حيث توافد عليها العديد من رجال الدين والعلماء والشعراء والأطباء والطلبة خاصة بعد سقوط الأندلس عام1492م، اهتم أمراءها وسلاطينها بالفكر والثقافة والعلوم فأنشئوا المدارس والمساجد والمستشفيات وقد كان حض الطب والأطباء وفيرا بإنشاء مستشفى المنصورة وتشجيع الأطباء والطلبة جعل حركة العلوم الطبية تزدهر خاصة مع توافد العديد من الأطباء العرب واليهود والأوربيين على تلمسان بعد سقوط الأندلس وهذا ما سوف نتعرض إليه في جزء من هذه الورقة.

لقد إستمر الإهتمام بالطب والأطباء على عهد الأتراك فمجيئهم إلى الجزائر عام 1516م للوقوف في وجه الحملات الإسبانية وتحرير السواحل الجزائرية من الوجود الإسباني قابله تطور في عدد المستشفيات وزاد الاهتمام بالطب خاصة مع حضور العديد من الأطباء الأوربيين المقربين من الدايات والبايات والباشوات الذين عرفتهم الجزائر في عهد الأتراك) .M.khiati.2000 :79) ومع إنشاء العديد من المستشفيات في الجزائر ووهران وتلمسان توافد الكثير من الأطباء الأوربيين من أشهرهم الطبيب "Guillandin.Melchior"(1557م-1516م) والطبيب "Murillo" (1649م-1678م) والطبيب الهولندي "Sanson " (1713)والطبيب الإيطالي"Pascal Gamisot" (1771) والطبيب الألماني "SimonPfeiffer " والطبيب الإسباني "Sanchez (1786) والطبيب " Underhill" والطبيب "Robert Heirome "(1689م-1697م) والطبيب" Monier Francois"(1553م-1557م) والطبيب "Maurin Francois " (1815م-1817م)والطبيب اليهودي"Michich "(1818م). (أبو القاسم سعد الله.105.106.1918)، هؤلاء الأطباء الأوربيون واليهود قد زاولوا الطب في العديد من المستشفيات على عهد الأتراك في مدن الجزائر وبجاية ووهران وقسنطينة والبليدة وخميس مليانة ومازونة وتلمسان.

إلى جانب الأطباء الأوربيين واليهود على عهد الأتراك السالفي الذكر نجد مجموعة من الأطباء والصيادلة الدين مارسوا الطب والتأليف والتدريس وصناعة الأدوية في كثير من المدن كالجزائر العاصمة وقسنطينة ومعسكر وعنابة وقسنطينة وبجاية ووهران ومازونة ومستغانم ومليانة وتلمسان رغم حالة التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي التي عرفتها الجزائر في السنوات الأخيرة للتواجد التركي العثماني وتزايد الأطماع الاستعمارية الإسبانية والفرنسية حيث نجد من أشهر الأطباء في هذه الفترة سعيد ابن أحمد المقري التلمساني (998هـ/1507م) والطبيب محمد إبن سليمان ابن التلمساني الشهير بلقب الجازولين والطبيب محمد بن أحمد الشريف الحسني والطبيب سيدي بلال والطبيب أحمد بن علي الراشدي المعروف بإبن سحنون صاحب كتاب " المنةالقدوسية في الأدوية الخموسية" والطبيب ابن مريم التلمساني صاحب كتاب "فتح الجليل في أدوية العليل"وكتاب "البستان " إضافة إلى الطبيب محمد بن أحمد الشريف الجزائري صاحب كتب الدرر المصون في تدبير الوباء والطاعون" والطبيب أبو رأس محمد الناصري المعسكري(1751م-1823م) والطبيب محمد ابن علي ابن الأمين والطبيب أحمد بن القاسم والطبيب محمد ابن علي ابن باديس الصنهاجي والطبيب عبد الله بن عزوز المراكشي المعروف بالطبيب سيدي بلال والطبيب نور الدين ابن نصر الدين الشافعي المكي صاحب كتاب " تحفة الإيمان" كما نجد الطبيب أحمد ابن قاسم ابن محمد ابن ساسي التميمي البوني أبو العباس(1653م-1726م) له كتابين هما "أعلام أهل القريحة في الأدوية الصحيحة" وكتاب "مبين المسارب في الأكل والطب مع المشارب" والطبيب خليل ابن إسماعيل الجزائري صاحب كتاب" Les trésors de lâme pour pallier aux maladies difficiles " ويعتبر الطبيب عبد الرزاق ابن حمدوش الجزائري(1107هـ-1200هـ)من أشهر الأطباء الجزائريين في فترة الأتراك. (أبو القاسم سعد الله.105.106.1918).

هذه الأسماء العربية واليهودية والأوروبية تؤكد إلى حد بعيد وجود الطب في الجزائر في مختلف مراحل تطورها التاريخي وخاصة على عهد الحضارة العربية والإسلامية ومرحلة التواجد التركي خاصة في المدن التي كانت عواصم للثقافة والفكر والعلوم مثل بجاية وتلمسان وقسنطينة ومازونة.كل هذا الحضور القوي للطب في تاريخ الجزائر القديم والحديث سيؤسس لمرحلة جديدة في تاريخ الطب الحديث في الجزائر على عهد الاستعمار الفرنسي انطلاقا من تأسيس المدرسة العليا للصيدلة والطب سنة1857م وهي تابعة لكلية الطب والمعهد العالي للصيدلة بمدينة مونبلييه الفرنسية.(Reggabi.M :1999.18.19).

6- هجرة الأطباء العرب واليهود إلى تلمسان :

بالعودة إلى الحديث عن تاريخ الطب والأطباء بتلمسان ضمن الخصوصية التاريخية والثقافية لهوية المدينة والتي تشكل عبر مراحل تطورها التاريخي خاصة في العهد الإسلامي فضاء رحبا للإزدهار الثقافي والفكري والحضاري لم تحض به مدينة أخرى في الجزائر عدى مدينة تلمسان مما جعلها قبلة لأهل الثقافة والفنون والعلوم واستقطبت العديد من رجال الدين والسياسة والتاريخ والكثير من الشعراء والعلماء والأطباء والصيادلة وقد ساعدتها مجموعة من الظروف السياسية والإجتماعية والثقافية ولعل من أبرزها اتخاذها عاصمة للكثير من الإمارات الإسلامية الناشئة في المغرب الإسلامي واهتمام الأمراء والسلاطين بعمارة المدينة على عهد الموحدين والزيانيين والمرينيين بشكل جعلها تضاهي أعظم المدن الإسلامية في المشرق والمغرب وبلاد الأندلس لكن أهم عامل هو قدرتها على الاتصال السياسي والثقافي والفكري ببلاد الأندلس والتي شهدت مدنها فتوحات عظيمة في العمران والحرف والفنون والفلسفة ومختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الطبيعية والعلوم الطبية في مدن قرطبة وغرناطة واشبيليا وغيرها هذا الانفتاح عاد بالخير على مدينة تلمسان وأهلها فشيدت القصور والحصون وقنوات السقي والري والحمامات والمساجد والمدارس والمستشفيات وازدهرت التجارة والحرف والصناعات وشجعت أهل العلم والفكر والثقافة والفن لكن أهم عامل ساهم في بزوغ الدور الريادي لمدينة تلمسان هو سقوط الأندلس عام1492م وهجرة العديد من رجال الدين والفقه والقضاء والشعراء والأدباء والعلماء والأطباء الأندلسيين والعرب واليهود إلى جانب التجار والحرفيين إليها والذين استقروا بها مع ضرورة استحضار الدور الذي لعبه أمراء الدولة الزيانية في إبراز الدور الثقافي والحضاري المتميز للمدينة تلمسان فطيلة ما يزيد عن 03 قرون حرص ملوك بني زيان على تشجيع العلم والعلماء فقد كان المسجد الكبير يشكل شبه جامعة على النمط القديم يضاهي جامع القرويين بفاس والزيتونة بتونس والأزهر بالقاهرة كما تم على عهدهم تأسيس مدارس تلمسان الخمسة الشهيرة والتي كانت بحق معاهد للدراسات العليا في مختلف العلوم الدينية والفقهية والعلوم الدنيوية أهمها مدرسة أبوحمو موسى الأول (707هـ-718 هـ) والمدرسة التاشفينية التي بناها السلطان أبو تاشفين الأول (718هـ-737هـ) وقد كانت تحفة فنية رائعة واعتبرت أفخم مدرسة في المغرب الأوسط والمدرسة المرينية التي أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المريني سنة)748هـ/1327م) بقرية العباد حيث ضريح الولي الصوفي الكبير أبي مدين شعيب الغوث الاشبيلي دفين تلمسان ومدرسة أبي عنان 754هـ/1333م التي بنيت بجوار ضريح الصوفي أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي الملقب بالحلوي إضافة إلى المدرسة اليعقوبية التي أسسها السلطان أبو حمو موسى الثاني (760هـ-791هـ) سنة 765هـ بجانب الضريح الذي أقيم فيه قبر والده السلطان أبي يعقوب يوسف وفيه ضريح الفقيه إبراهيم المصمودي. (أبو القاسم سعد الله.105.106.1918).

على الرغم من تركيز هذه المدارس على تعليم العلوم الدينية والفقهية إلا أن حرص ملوك بني زيان على الاهتمام بالعلم والعلماء دفعهم إلى تحويلها إلى شبه جامعات تقدم إلى جانب العلوم الدينية والفقهية علوم اللغة والبلاغة والنحو والرياضيات والمنطق والحساب وعلم التنجيم والفلك والتاريخ والطب والصيدلة حيث عملوا على توفير كل شروط التكوين الناجح من أموال وأساتذة ومؤلفات وكتب ففي مجال الطب والصيدلة أكدت الدراسات التاريخية توفر هذه المدارس على أمهات مصادر الطب العربي ولاسيما مؤلفات ابن رشد وابن سينا وداود الأنطاكي وابن البيطار وقد عرفت المدينة إنشاء أول مستشفى قبل حكم السلطان أبي حمو موسى ثاني شيده السلطان يوسف ابن يعقوب في مدينة المنصورة في ضواحي تلمسان واستطاع أن يجهزه ويوفر له العديد من الأطباء والعلماء لصناعة الأدوية وتكوين طلبة الطب والصيدلة وتقديم الأدوية بالمجان للمرضى، هذا الاهتمام الذي كان يوليه ملوك تلمسان للأطباء شجع العديد منهم على الهجرة إلى المدينة خاصة مع ظروف اللاإستقرار التي شهدتها بلاد الأندلس في تلك الفترة.

يقدم التاريخ العربي الإسلامي لتلمسان العديد من الأسماء اللامعة في عالم الطب والصيدلة عربا وأندلسيين ويهود استقروا بتلمسان ومارسوا الطب في مستشفياتها وفي مختلف قصور أمرائها كما قاموا بتكوين العديد من الأطباء من أبرزهم الطبيب أبو جعفر الذهبي (553هـ-600هـ/1134م-1204م) وقد كان طبيب السلطان المنصور والطبيب اليهودي إسحاق ابن سليمان الإسرائيلي عاش في تلمسان له العديد من المؤلفات الطبية في الحمية ونظام التغذية وصناعة الأدوية توفي في عام(320هـ/899م) وكان طبيب السلطان عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالقيروان، إضافة إلى الطبيب أبو عبد الله الندرومي واسمه الكامل محمد بن سحنون الكومي الندرومي ولد سنة (634ه/1184م) كان طبيب أمراء دولة الموحدين السلطان ناصر المؤمنين محمد بن يعقوب وبعده السلطان المستنصر يوسف ابن محمد ثم السلطان المتوكل على الله محمد ابن يوسف ابن هود وبعده السلطان عبد الله ابن هود)

(M.Khiati :2000.58،كما نجد الطبيب التفاشي وهو شرف الدين أبو العباس احمد ابن يوسف الحفصي ولد تلمسان وتوفي سنة (651هـ/1230م) والطبيب ابن خميس التلمساني وهوأبوعبد الله محمد ابن عمر ابن محمد ابن عمر الجاميري أصله من اليمن ولد بتلمسان(645هـ/1247م)كان طبيبا ومدرسا للطب بالأندلس قتل سنة (708هـ/1309م) والطبيب ابن أبي حجلة وهو شهاب الدين أبي العباس أحدد بن يحيى ابن أبي بكر ابن عبد الوهاب التلمساني ولد سنة(776هـ/1375م) (M.Khiati :2000. 59.60) والطبيب ابن سعيد ابن علي ابن محمد القرشي الأموي التلمساني ولد سنة(772 هـ/1370م) وتوفي (839هـ/126) والطبيب الخطيب ابن عبد السلام التلمساني ولد بالعباد سنة1313 م أخد الطب من علماء القيروان القاهرة والطبيب أبو عبد الله محمد ابن الشريف العلوي التلمساني ولد بتلمسان سنة(710هـ/1310م) هاجر إلى فاس ثم عاد إلى تلمسان في عهد حكم السلطان أبو حمو موسى الثاني وقد درس بالمدرسة اليعقوبية التي عرفت العديد من العلماء من أمثال عبد الرحمن ابن خلدون ويحيى ابن خلدون وابن عرفة والمقري والابيلي وابن الحباك (عبد الرحمن الجيلالي.415.1971). وقد توفي سنة(771هـ/1370م) كما نجد مجموعة من الأطباء من أمثال أبو إسحاق إبراهيم أحمد المقري التلمساني والطبيب الطلالسي والطبيب محمد الشكوري والطبيب محمد ابن مرزوق التلمساني والطبيب محمد ابن احمد العكباني(804 هـ/1401م وقد توفي في سنة 871هـ والطبيب محمد أبو الفضل التلمساني والطبيب محمد ابن يوسف السنوسي ولد سنة(832هـ/1422م) وتوفي سنة (895هـ/1490و الطبيب ابن الفشوش (840ه/م 1436) والطبيب عبد الباسط المصري(866هـ/ 1462م) توفي سنة(871هـ/1466م) وقد برز كذلك الطبيب إبراهيم أحمد الثغري والدي كان له مؤلفات طبية منها " معجم في الطب " وهو عبارة عن قائمة أسماء الأعشاب والأدوية المشاعة بين عامة الناس كما كان له رسالة في الطب حول الأدوية ومنافعها وقد تلقى الطب على يد أبي عبد الله الشريف التلمساني توفي الثغري في أوائل القرن 09هـ (أبو القاسم سعد الله.105.106.1918).كما حل بمدينة تلمسان الطبيب البجاوي أبو الفضل محمد المشدالي وقد درس الطب عن محمد ابن علي بن الفشوش وداع صيته في المغرب والمشرق توفي بالشام سنة866هـ.كما نجد الطبيب داودعبداللهالبغدادي.(M.Temmar :1983. 230)

لقد كان الطبيب محل احترام وتبجيل خاصة أهل تلمسان وعامتهم وقد ارتبط بعضهم بالتأليف والتدريس والبعض الآخر بالتداوي والجراحة والصيدلة وصناعة الدواء حيث يركبون الأدوية من النباتات المتوفرة في البلاد ويصنعون المعاجين والأشربة ويستعملون الكي والحجامة والجراحة والتجبير على الرغم من تراجع الاهتمام بالطب والأطباء على عهد الأتراك واقتصاره على الأطباء الأوربيين الذين استقروا بالجزائر وتقربوا من العائلات التركية العثمانية الحاكمة.

لقد شهدت تلمسان هجرة العديد من الأطباء اليهود الذين استقروا بالمدينة بعد حالة الفوضى التي أعقبت سقوط الأندلس على الرغم من توافدهم على الجزائر وتلمسان في فترات سابقة فإلى جانب الطبيب اليهودي إسحاق ابن سليمان الإسرائيلي المتوفي بتلمسان سنة320هـ/899م وقد ترك مؤلفات ورسائل طبية في الحمية ونظام التغذية وصناعة الأدوية ،نجد الطبيب اليهودي يعقوب جابسون " Jabcob.Gabison" والطبيب موشي ابن صموال "MouchelbnSamual " (820هـ/1418م) والمعروف بالطبيب أبي الأشقر والطبيب ابراهام أنكوها " Epraham.Ankoa "(1359م-1442م) والطبيب أستروك كوهان" Astruc.cohen " والطبيب سيمون سيماح دوران "Simon.Semah.Duran " ولقد ترك هؤلاء الأطباء اليهود العديد من المؤلفات والرسائل الطبية من أشهرها كتاب موشي بن صموال" " وعبد السلام ابن الخليل " الروض البسيم في حوادث العمر والتراجم"(.M.Khiati :2000. 68)

على الرغم من التراجع الثقافي والفكري على عهد الأتراك خاصة في السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية بسبب حالة الإنحطاط التي اصابتهاوإزدياد أطماع الدول الإستعمارية إسبانياو فرنسا واصلت تلمسان أداء دورهاالفكري والثقافي والحضاري فنبغ العديد من العلماء في علم الفلك والرياضيات والكيمياء مثل أبوعبدالله بن النجارالتلمساني الذي نبغ في العلوم العقلية توفي سنة 749هـ بتونس ومن تلاميذته أبو عبد الله الشريف والمقري وابو الحسن الفحام والعالم ابو عبدالله محمد إبن إبراهيم التلمساني الملقب بالأبيلي ولد سنة 681هـ وساهم مساهمة كبرى في تكوين جيل من كبار العلماء منهم عبد الرحمان بن خلدون ويحيى بن خلدون والمقري وابو الحسن الفحام والعالم أبو عبد الله الشريف والطبيب إبن مرزوق الخطيب وسعيد العقباني وإبن الصباغ المكناسي توفي سنة 757هـ والعالم إبن الفحام والعالم علي البجائي الذي ذاع صيته في الحساب والفرائض والطب وابوعبد الله الحباك نبغ في الطب والحساب والفرائض ومن تلاميذه الإمام السنوسي توفي سنة 867هـ والعالم أبو الحسن القلصادي الذي ألف الكثير في الرياضيات والفرائض إلى أنه قدم مساهمات في الطب والصيدلة (رشيد بورويبة.موسى لقبال:1984.437.452).

من هنا فإن مدرسة تلمسان الطبية لم تأفل تماما على عهد الأتراك حيث كانت كتابات إبراهيم بن أحمد التلمساني معروفة في الطب كما أن سعيد المقري جمع بين العلوم النقلية والعلوم العقلية ولاسيما الطب والتشريح والهندسة والفلاحة والتنجيم كدلك نجد إبن مريم صاحب كتاب "فتح الجليل في أدوية العليل " كما نجد محمد بن سليمان صاحب الموسوعة الضخمة في التصوف قد جمع بين الطب الطبية والشرعية، كذلك نجد محمد إبن احمد الشريف والتصوف ونظم رجزا في الموازين والمكاييل صاحب رسالة الطب النبوي " المن والسلوى في تحقيق معنى حديث لاعدوى" إظافة إلى عبد الله بن التلمساني في كتابه "ذهاب الكسوف ونفي الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة" (عزوزالمراكشي أبو القاسم سعد الله:1981.432.434).

تؤكد هذه الأسماء وأخرى الحضور القوي للطب والتكوين الطبي في الصيرورة التارخية للمجتمع التلمساني في عصر النهضة العربية والإسلامية خصوصامع إستفادتها من الإتصال السهل بالأندلس وكذلك إرتباطها بالعديد من الأمراء والسلاطين الذين قدسوا العلم والثقافة إظافةإلى تأثيرسقوط الأندلس1492م في هجرة العديد من الأطباء العرب واليهودإلى تلمسان، من هنا أمكن القول بأن هذاالإرث التاريخي والحضاري للمدينة ساهم إلى حد بعيد في ضرورة خلق تواصل في التكوين الطبي داخل المدينة يتيح لها أن تستفيد من مؤسسة جامعية طبية حديثة تستمد وجودها وشرعيتها من هذا الإرث الحضاري والتاريخي.

المراجـع :

1- عبد الرحمان بن محمد الجيلاني.تاريخ الجزائر العام.الجزء الأول.ط03.المطبعة التجارية.الجزائر.1971..
2- أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر هجري.(16م-20م).الجزء الأول.الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.الجزائر.
3- . رشيد بورويبة.د.موسى لقبال.د.حاجيات عبد الحميد.دعطاالله دهينة.د.محمد بلقراد.الجزائر في التاريخ.العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني. المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر1984م.
4- صالح فركوس.المختصرفي تاريخ الجزائرمن عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين 814ق م – 1962م.دار العلوم.الجزائر.2002م
5- لويس توماس.يوميات طبيب.ترجمة أميركامل.دار النشر كتابي.القاهرة.1983.
6- بيار بورديو.أسباب عملية إعادة النظر بالفلسفة.ترجمةانور مغيث.دار الأزمنة الحديثة. ط01.بيروت.1998..
7- مجلة تلمسان، الفن والثقافة. مجلة تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام.الجزائرية.مطبعة ألتاميراروتبريس.ي.م.إسبانيا1975.
08-P.Bourdieu.et.J.C.Passeron.les heritiers.les étudiants et la culture.minuit.paris.1964.

09-K.marx.et.Engles.critique de éducations l'enseignement. maspero. paris. france.

10- M.Temmar.les relations culturelles entre l Algérie et l escterieur. sned. alger. 1983.

11-A.Filali.tlemcen a l époque des zianides thèse détat en histoire de l’islam. alger. 1995.

12- K.Khiati.histoire de la médecine en Algérie.de lentiquite a nos jour. anep. alger. 2000.

13 -Aiach.P.Fassin.les métiers de la santé.en jeux de pouvoir et quête de legitimite. anthropos. paris.

14-M.Benlarbey.(1850-1939).premier médecin algerien.la revue medico-pharmaceutique.n°:11.decembre.alger.1999.

15-Reggabi. M.histoire de la faculté miscte de médecine et de pharmacie. la revue. medico-pharmaceutique. n°:11. decembre. alger. 1999